

إسهام المرأة في الفكر الصوفي

1/ خضرة سامية بن هنية

جامعة الجزائر

مقدمة:

قدم التاريخ الاسلامي العديد من الشخصيات في الفكر الصوفي مبرزاً إسهاماتهم في إثراء البعد الروحي لجوهر الاسلام ودورهم في نشره ودورهم في الترقى الأخلاقي والحضاري للأمة باعتبار أنّ التصوف يتناول محاور ثلاث هي العلاقة مع الله والعلاقة مع الانسان، والعلاقة مع الطبيعة ومن ثم أنتج التصوف ثروة روحية عظمت في الفكر الاسلامي لا يمكن لأحد تجاهلها.

إلا أنّ الباحث في تلك الشخصيات يجد الجانب الذكوري يغلب على الجانب الأنثوي فنكاد لا نعرف من تاريخ الزاهدات العابدات سوى رابعة العدوية في حين أنّ الكثرات أذكين الجانب الروحي في الحياة الدينية أثناء العصور الاسلامية ومن ثم تطرح الاشكاليات الآتية:

1. هل المرأة المسلمة كانت غائبة في هذا المجال (الفكر

الصوفي) أو غيبته؟ وإن كانت مغيبة، فما سبب ذلك؟

2. ما مدى اسهاماتها في هذا المجال مقارنة بالرجل؟
3. هل نحن بحاجة الى إعادة قراءة تاريخ المرأة في الاسلام؟

للإجابة على هذه الأسئلة والإشكالات اقتضت الدراسة تقسيم البحث الى ما يلي بعد هذه المقدمة.

- المبحث الأول: مكانة المرأة في الإسلام.
- المبحث الثاني: اسهامات المرأة في الفكر الإسلامي.
- المطلب الأول: تعريف الفكر الإسلامي.
- المطلب الثاني: إسهامات المرأة في المجال الفكري.
- المبحث الثالث: المرأة والتصوف.
- المطلب الأول: تعريف التصوف وأنواعه.
- المطلب الثاني: التصوف النسوي.
- المطلب الثالث: مميزات التصوف النسوي.
- المطلب الرابع: تقييم إسهام المرأة في الفكر الصوفي.

خاتمة

توصيات

المبحث الأول: مكانة المرأة في الاسلام

المرأة هي نصف المجتمع وهي مؤسسة النصف الآخر هذا ما جاء به الاسلام ليعلن للبشرية جمعاء أنّ النساء شقائق الرجال كما جاء في حديث النبي صلى الله عليه وسلم ويؤكد ذلك قوله تعالى: «والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض» (التوبة 71) ومن ثم رفع الاسلام منزلة المرأة وعمل على تحريرها من كل القيود الجاهلية التي كانت سائدة في الجزيرة العربية وفي العالم كله عند الرومان واليونان وغيرهم من المجتمعات البشرية التي كانت تميز بين الرجل والمرأة. والأصل أنّها إنسان مثل الرجل يشتركان في وظيفة واحدة وهي الاعمار والاستخلاف في الأرض لذلك نجد أنّ القرآن سوى بين الرجل والمرأة في الوظيفة الدينية والاجتماعية فلم يفرق بين الرجل والمرأة إذ الخطاب القرآني كان موجه للجنسين دون تفریق.

إنّ مصطلح المرأة في القرآن الكريم تكرر ست وعشرون مرة، ومصطلح النساء تسع وخمسون مرة، في حين ذكر مصطلح الانسان سبعون مرة ومصطلح ابن آدم خمس وعشرون مرة، ومن خلال هذه الارقام يظهر أنّ القرآن الكريم توجه الى المرأة

كإنسان أكثر من خمس وتسعون موضع في حين خصها كامرأة خمس وثمانون موضع، فتبين بذلك أن الله تعالى خاطبها كإنسان أكثر من موضع لأنّ الرجل والمرأة في التصور الاسلامي سيان في التكليف والمسئولية والجزاء.

ومن ثم فإن المرأة في الاسلام مناطة بوظيفة تفعيل وصياغة أحد شروط الحضارة وهو الإنسان باعتبارها إنسان وباعتبارها مؤسسة الإنسان إذ يتربى في أحضانها، وهو ما ذكره الدكتور راشد الغنوشي في تعريفه للمرأة فقال: المرأة نصف المجتمع والنصف الآخر يتربى في أحضانها، ومثلما للمرأة واجبات تجاه المجتمع فإن الاسلام أقر لها مجموعة من الحقوق منها:

□ المساواة في الانسانية.

□ حرية التعاقد في العلاقات الاقتصادية كالبیع .. والاجتماعية كالزواج..

□ حق العلم.

□ حق التعلم.

□ حق التملك.

□ حق الميراث.

□ حق العمل... إلخ.

إنّ الاسلام سوى بين الرجل والمرأة في جملة الحقوق والواجبات وإذ كانت هناك فروق معدودة، فاحتراما لأصل الفطرة الانسانية وما ينبغي عليها من تفاوت الوظائف وعليه فالإسلام أعطى للمرأة حقوقها الانسانية كاملة من غير بخس في أي جانب منه.

هذا ما قدمه الاسلام للمرأة فماذا قدمت المرأة المسلمة في الفكر الاسلامي؟

المبحث الثاني: اسهامات المرأة في الفكر الاسلامي

قبل أن نتحدث عن اسهام المرأة في الفكر الاسلامي عامة والفكر الصوفي خاصة لابد من تحديد مفهوم الفكر الاسلامي ذلك المصطلح المتداول في الدراسات الاسلامية والدراسات الفكرية عموما.

المطلب الأول: تعريف الفكر الاسلامي

هناك عدة مفاهيم للفكر الاسلامي إذ حاول بعض المفكرين المسلمين المعاصرين الاسهام في تحديد وصياغة التعريف الاصطلاحي للفكر الاسلامي منها:

1- «الفكر الاسلامي هو التفاعل بين عقل المسلمين وأحكام الدين الأزلية»⁽¹⁾ ويقصد بذلك أن عقل المسلم يتدبر ويتأمل وينظر في كل ما جاء به الوحي من قرآن وسنة فيتكيف معه ليصل الى معارف وحقائق.

2- ويرى الدكتور محمد البهي في كتابه الفكر الاسلامي في تطوره: «بأنه المحاولات العقلية من علماء المسلمين لشرح الاسلام في مصادره الاصلية: القرآن والسنة الصحيحة» (2) وهو بذلك يقصد كل ما أنتجه العقل المسلم لفهم الوحي.

3- ويعرف الفكر الاسلامي: بأنه تلك المحاولات العقلية لفهم الاسلام وشرحه من مصادره الأصلية ويمكن تقييد هذا التعريف تقييدا يفيد اضافات في المنهج والوجهة فيعرف الفكر الاسلامي بأنه: «تلك المحاولات العقلية لفهم الاسلام وشرحه من مصادره الأصلية سعيا للانسجام مع ما خلق الله تعالى في التسليم والاستسلام لله عز وجل»⁽³⁾

4- ويحدد الدكتور محسن عبد الحميد: مفهومه فيقول: «مصطلح الفكر الاسلامي من المصطلحات الحديثة وهو يعني كل ما أنتج فكر المسلمين منذ بعث الرسول صلى الله عليه وسلم الى اليوم في المعارف الكونية العامة المتصلة بالله سبحانه وتعالى والعالم والانسان، والذي يعبر عن اجتهاد العقل الانساني لتفسير تلك المعارف العامة في إطار المبادئ الاسلامية عقيدة وشريعة وسلوك»⁽⁴⁾ أي أنّ الفكر الاسلامي هو ناتج عن عملية التفكير الاجتهادي القابل للخطأ المرتكز الى كليات الاسلام الأساسية بل والصادر عنها. بعيدا عن كل نتاج يعتمد كليات وفلسفات مغايرة لنظرة الاسلام العامة وكلياته، وكل ذلك لالتزام المعايير الاسلامية في فهم النصوص ومراعاة أصول الاستنباط طبقا لقواعد اللغة العربية ومنطلق الشريعة

وبناء على ما تقدم يمكن تعريف الفكر الاسلامي بأنه: كل ما أنتجه العقل المسلم في محاولة فهم وشرح الاسلام من مصدره الأصلي المتمثل في الوحي، سواء كان ما وصل إليه العقل صحيح أو خاطئ في مختلف الموضوعات والاشكالات والقضايا المرتبطة بحياة الانسان والكون. ونؤكد على أنّ الفكر الاسلامي شامل يغطي جميع جوانب الحياة يتناول مجالات كثيرة

فهو لا يقتصر على علم الكلام والفلسفة كما يرى البعض بل يتناول كل مجالات المعرفة ولا يقتصر على مجتمع معين بل المجتمعات الانسانية كافة فما توصل اليه العلماء من تأسيس علم أصول الفقه، وعلم الكلام وعلم المقاصد وعلم التصوف وغيرها من العلوم الشرعية والاجتماعية هو الفكر الاسلامي. فكل إسهامات علماء الاسلام في الحقل المعرفي يعتبر فكرا إسلاميا، والسؤال الذي يطرح الآن ما هي اسهامات المرأة المسلمة في الحقل المعرف؟

المطلب الثاني: اسهامات المرأة المسلمة في المجال الفكري

سبق وأن ذكرنا أنّ المرأة أقصيت من مشهد الحياة والذاكرة الانسانية في المجتمعات، فكم من مبدعة وشاعرة وفنانة أهملها التاريخ الى أنّ جاء الاسلام وعزز مكانتها وأشركها في الحياة العامة والعلمية والفكرية فذكر التاريخ الاسلامي إسهامات كبيرة في الحركة العلمية والأدبية للمرأة المسلمة، في مختلف مراحل التاريخ الاسلامي فألاف من العالقات المتفوقات في أنواع العلوم وفروع المعرفة وحقول الثقافة الاسلامية، منها ما ترجمه الحافظ ابن حجر في كتابه «الاصابة في تمييز الصحابة»

ذكر ثلاث وأربعين وخمسمائة وألف امرأة، ضمن الفقهيات والمحدثات والأدبيات.

وذكر كل من الامام النووي في كتابه «تهذيب الأسماء واللغات» والخطيب البغدادي في كتابه «تاريخ بغداد» والسخاوي في كتابه «الضوء اللامع لأهل القرن التاسع» وعمر رضا كحالة في «معجم أعلام النساء» وغيرها من المصنفات والكتب التي ترجمت لنساء عالمات في الحديث والفقه والتفسير والأدب والشعر..

وأول من أسهمت في العلم الشرعي هي أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها التي كانت من أعلم الناس بالقرآن والفرائض والفقه فكانت رضي الله عنها فقيهة نساء الأمة وحاملة راية العلم في عالم النساء.

ونجد العالمة السيدة فاطمة بنت الحسين بن علي كانت من أنبع نساء عصرها وأكثرهن علما وورعا، فساهمت في تدوين السيرة النبوية الشريفة إذ اعتمد على روايتها كل من ابن اسحاق وابن هشام في كتابة السيرة. وغيرهن كثيرات أسهمن في مجال الفقه والحديث والتفسير والسيرة والطب والشعر...

أمثال فاطمة الفهرية في الغرب الاسلامي التي بنت جامع
القرويين في فاس في القرن الثالث هجري فقد كانت عالمة
فاضلة محسنة وجعلت مالها وقفا لخدمة العلم والدين... إلخ

إنّ التاريخ الاسلامي سجل نبوغ المرأة المسلمة واسهاماتها
المتميزة في حقول العلم والمعرفة لا يسع المقام ذكرهن جميعا.

لقد برزت المرأة في ظل الاسلام في موضوعات علمية
وثقافية فكرية مختلفة، فكانت لها اسهامات عميقة ومتنوعة لا
تقل أهمية عن اسهامات الرجال، فكان لها أثر واضح في
الدراسات الدينية وفي الطب والأدب وغيرها من الدراسات
العلمية التي تفيد البشرية.

والسؤال الذي يطرح نفسه بعدما بينا بأنّ للمرأة المسلمة
اسهامات في الفكر الاسلامي وأنّ التاريخ والدراسات تثبت
تلك المساهمة الفعالة داخل المنظومة المعرفية الاسلامية.

هل للمرأة المسلمة اسهامات في الفكر الصوفي؟ على
اعتبار أنّ التصوف هو مجال من مجالات الفكر الاسلامي.

المبحث الثالث: المرأة والتصوف

قبل التحدث عن اسهام المرأة في الفكر الصوفي لابد من تحديد مفهوم التصوف وتعريفه

المطلب الأول: تعريف التصوف وأنواعه

شغلت كلمة «تصوف» و «صوفية» الباحثين فترة من الزمان سواء كانوا من القدماء المعاصرين لنشأة التصوف، أو من المحدثين الذين توفروا على دراسة كتب التصوف والترجمة لشيوخته ومؤرخيه، وقد وقع الاشكال في عدم تحديد المصدر الذي اشتقت منه هذه الكلمة -التصوف- مما أدى الى عدة احتمالات منها:

1- الاحتمال الأول: الذي ذكروه هو أن هذه الكلمة «التصوف» نسبة الى الصفاء. وقد ردّ هذه النسبة الامام القشيري في كتابه «الرسالة»⁽⁵⁾ لأن صاحبها صفت أسرارها، ونقيت أثاره.

2- الاحتمال الثاني: أن تكون منسوبة الى «الصُّفَّة» نسبة الى أهل الصُّفَّة الذين كانوا يقعدون في مؤخرة مسجد

الرسول صلى الله عليه وسلم⁽⁶⁾ وهي السقيفة التي كان يأوي إليها فقراء الصحابة الذين لا مأوى لهم ولا أهل ولا بلد، وهي نسبة باطلة لغويا وواقعا.

3- الاحتمال الثالث: أن تكون نسبة هذه الكلمة الى «الصّوف» وقد ذهب الى ذلك شيخ الاسلام ابن تيمية، وابن خلدون وغيرهم⁽⁷⁾ أي أنها منسوبة الى لبسة الصّوف، الذي هي شعار الأنبياء والرسل والأولياء الصالحين جاء في الأثر؛ عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم: «كان يلبس الصّوف، ويركب الحمار، ويأتي مدعاة الضيف.»

وقال الحسن البصري رحمه الله: «لقد أدركت سبعين بدريا ما كان لباسهم إلا الصّوف.»

أولا: التصوف لغة

قبل أن نذكر التعريف اللغوي للتصوف، نكتشف أن لفظة «التصوف» لها معان ثلاث: معنى لغوي، ومعنى فني، ومعنى عرفي.

□ فالمعنى الفني «هو علم مُدَوّن تُعرف به كيفية تصفية الباطن من عيوب النفس شرعا وعقلا» أي تطهير القلب والنفس من الأمراض المعنوية، كالحسد، والحقد، والرياء... الخ.

□ والمعنى العرفي: «هو التخلق بأخلاق الصوفية والاقتداء بهم في الأقوال والأفعال والمقاصد»⁽⁸⁾

□ أما المعنى اللغوي: هو تكلف لبس الصوف «جاء في لسان العرب «...الصوف للشاة والصُوفَة أخص منه، والصوفة: كل من ولي شيئا من عمل البيت، وهو الصّوفان، قال الجوهري: وصوفة أبو حيّ من مُضَرّ وهو الغوث بن مرّ بن أد بن طابخة بن إلياس بن مُضَرّ، كانوا يخدمون الكعبة في الجاهلية ويحيزون الحاجّ أي يفيضون بهم، وقال ابن سيده: وصوفة حيّ من تميم وكانوا يحيزون الحاج في الجاهلية من منى، فيكونون أول من يدفع.»⁽⁹⁾

من خلال التعريف اللغوي يتضح لنا أن كلمة التصوف مشتقة من الصوف المعروف للشاة ونحوها.

وذهب صاحب كتاب «المصباح المنير» الى أن كلمة الصوفية كلمة مولدة لا يشهد لها قياس ولا اشتقاق في اللغة العربية⁽¹⁰⁾

ثانياً: تعريف التصوف اصطلاحاً

□ لا يمكن أن نجد تعريفاً جامعاً مانعاً لعلم التصوف كما في العلوم الأخرى، فقد اختلف الصوفية في تعريفه اختلافاً كثيراً كما اختلفوا في أصله واشتقاقه، فكل واحد يعرفه من زاوية معينة. لذلك من العسير أن نقع على تعريف للتصوف يجمع كل خصائصه وزواياه، ويرضي جميع رجاله ولكن الكل يتفق على أن التصوف هو كيفية القرب من الله تعالى، ومن هذه التعريفات ما يلي:

1- عرفه الجنيد: «التصوف أن تكون مع الله بلا علاقة» وقد عرفه أيضاً بما يلي فقال: «التصوف تصفية القلب عن موافقة البرية ومفارقة الأخلاق الطبيعية وإخماد الصفات البشرية ومجانبة الدواعي النفسانية ومنازلة الصفات الربانية والتعلق بعلوم الحقيقة واتباع الرسول في الشريعة»⁽¹¹⁾

2- عرفه معروف الكرخي: «التصوف هو الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيدي الخلائق»⁽¹²⁾

3- «الصوفي من صفا قلبه لله» وهذا هو التعريف المفضل عند غالبية الصوفية الذين عاشوا التجربة الصوفية.⁽¹³⁾

4- «التصوف رياضة النفس ومجاهدة الطبع، برده عن الأخلاق الرذيلة، وحمله على الأخلاق الجميلة ابتغاء السعادة، وهذه الرياضة والمجاهدة تكون بالعكوف على العبادة والأعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة مال أو جاه»⁽¹⁴⁾

من التعريف اللغوي والاصطلاحي للتصوف نجد أن المعنى اللغوي لكلمة -التصوف- والبحث في أصلها واشتقاقها لا تدل على الحقيقة الاصطلاحية التي ينطوي عليها من قريب ولا من بعيد، علاوة أن هذا الاسم لم يكن مشهورا عند السلف ولا متداولاً بينهم، إلا أنه يبقى -التصوف- دائما جزءا أساسيا في تراثنا الاسلامي حيث تبوأ مكانا هاما باعتباره مبحثا من مباحث الفكر الاسلامي في شتى مراحله، وباعتباره ركنا أساسيا من أركان الهوية الاسلامية.

فقد مرّ التصوف في الاسلام بمراحل متعددة، وتواردت عليه ظروف مختلفة، واتخذ تبعا لكل مرحلة، ووفقا لما مرّ به من ظروف، مفاهيم متعددة، ولذلك كثرت تعريفاته، وكل تعريف منها قد يشير الى بعض جوانبه دون البعض الآخر، ولكن يظل

هنالك أساس واحد للتصوف لا خلاف فيه، وهو أنه أخلاقيات مستمدة من الاسلام، ولعل هذا هو ما أشار اليه ابن القيم في مدارج السالكين قائلا: «واجتمعت كلمة الناطقين في هذا العلم: أن التصوف هو الخلق»⁽¹⁵⁾ ومن هذا يتبين أن التصوف في الاسلام، «كعلم ديني يختص بجانب الأخلاق والسلوك، وهو روح الاسلام»⁽¹⁶⁾

إن الباحث في علم التصوف وتاريخه يكتشف بأنه مرّ بمراحل وتلك المراحل ولدت أنواعا من التصوف فكل باحث في هذا المجال له تقسيمات انطلاقا من دراسته وقراءة نصوصه (أي التصوف)

ثالثا: ويمكن أن نقسم التصوف من حيث موضوعاته وممارسته في التاريخ الاسلامي الى ثلاث:

1- التصوف العملي:

ويتجسد في عبادة النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين المتمثل في تركية النفس بالتزام أوامر الله واجتناب نواهيه والزيادة بالأخذ بالنوافل والعزائم والأخلاق فيتميز هذا

التصوف في ممارسة الزهد والشعور بمراقبة الله وعدم الغفلة عن ذكر الله وبالتالي يتحقق السمو الروحي والاشراق القلبي والتخلق بمعالي الأخلاق والتحلي بمكارمها فهذا التصوف هو جوهر الدين وروح الاسلام كما يتميز هذا النوع بأن ممارسيه لم يدونوا شيئاً في التصوف.

2- التصوف التأصيلي:

إن التصوف العملي أنتج لنا فكراً صوفياً أصيلاً وأصبح علماً قائماً بذاته وذلك من القرن الثالث الهجري فأصلوا علماء الاسلام هذا العلم انطلاقاً من المصدر الأصلي المتمثل في الوحي (القرآن والسنة)

من أشهر هؤلاء العلماء الامام الغزالي الذي قام بتأصيل المعرفة الصوفية تأصيلاً اسلامياً يوافق القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، ومما يميز هذا النوع من التصوف أنه بقي هذا الاتجاه الروحي على صفائه الاسلامي، حتى بعد تطوره الى فكر وعلم قائم بذاته لأنه بقي ملتزماً بضوابط الشرع يقوم على التأمل العميق في التوحيد والعبودية التامة لله تعالى عن طريق تصفية القلب، واستقامة السلوك ومجانبة الدواعي النفسانية،

والتعلق بالعلوم المستنبطة من الكتاب والسنة. وبالتالي تبلور فكر صوفي اسلامي عميق في هذه المدرسة الصوفية، حول حقيقة العبادة والتوحيد واتباع السلوك الصحيح الى الحق تبارك وتعالى، ووصف مراتب النفس وتصفيتها، وأمراض القلوب وشفاءها...

إلا أن هذا التصوف السليم الذي تضبطه ضوابط القرآن والسنة لم يستطع أن يسيطر على عالم التصوف أو الساحة المعرفية لهذا العلم بل ظهرت فئة جديدة داخل الدائرة الصوفية وهو ما يسمى بالتصوف الفلسفي النظري.

3- التصوف النظري الفلسفي:

عرفه الدكتور عرفان عبد الحميد عبد فتاح فقال: «هو تصوف نظري مبني على النظر الفكري والدراسة والبحث»⁽¹⁷⁾ وقد ظهر هذا التصوف نتيجة دخول ثقافات دخيلة على المجتمع الاسلامي ونتيجة حركة الترجمة والاختلاط المباشر والاحتكاك الحضاري بالأديان القديمة ويوضح ذلك د/ أبو الوفاء التفتازاني بقوله: «التصوف الفلسفي في الاسلام تصوف آخر يختلف في الطابع عن التصوف السني، والمقصود بالتصوف الفلسفي، التصوف الذي يعمد أصحابه الى مزج أذواقهم الصوفية

بأنظارهم العقلية، مستخدمين في التعبير عنها مصطلحا فلسفيا استمدوه من مصادر متعددة وقد امتزج بالفلسفات الأجنبية مثل اليونانية والفارسية والهندية والمسيحية، وهو تصوف غامض ذو لغة اصطلاحية خاصة ⁽¹⁸⁾

وعليه يمكن أن نستخلص مميزات هذا النوع من التصوف في النقاط الآتية:

- (1) أنه يعتمد على مصدرين:
أ- مصدر ديني المتمثل في القرآن والسنة.
ب- مصدر خارجي المتمثل في ثقافات أجنبية وديانات قديمة.
 - (2) أنه يقوم على النظر العقلي الفلسفي.
- ومن ثم فهو يختلف عن التصوف العملي والتصوف التأصيلي.
- والسؤال الذي يطرح الآن أين موقع المرأة المسلمة في هذه الأنواع التي ذكرناها وما اسهاماتها؟

المطلب الثاني: التصوف النسوي

بقراءة تاريخ التصوف والاطلاع على كتب تراجم النساء نجد عالقات صوفيات كثرات ذكرن كرابعة العدوية ورقية الموصلية وريحانة المجونة وفاطمة النيسابورية وغيرهن كثرات ⁽¹⁹⁾ فالمكتبة الاسلامية تزخر بكتب تذكر النساء الزاهدات وأهم

شخصية ذكرت في تاريخ وفكر التصوف الاسلامي رابعة العدوية التي يرجع لها الفضل في إشاعة لفظ الحب الالهي بلا واسطة، فهي مؤسسة لمدرسة العشق الالهي. وأقصد -بلا واسطة- أي أنها تصوفت بدون شيخ ولا طريقة. فكانت مثلاً رائعا للحياة الروحية في الاسلام.

ولم تكن النسوة الصوفية بالمغرب الاسلامي أقل ورعا وزهدا من أخواتهن بالمشرق، فقد كانت لهن مكانة مرموقة في مجال الفكر الصوفي المغربي أمثال فاطمة أم البنين بنت محمد بن عبد الله الفهري التي أسست جامع القروين وأختها مريم التي أسست جامع الأندلس وغيرهن كثيرات وفي الجزائر نجد «لالا ستي» الولية الصالحة الزاهدة بنت عبد القادر الجيلاني البغدادي التي استقرت في تلمسان وعاشت فيها أثناء القرن 6هـ و7هـ و«لالا مغنية» الولية الصالحة العالمة الصوفية أفنت عمرها في تعليم الدين الحنيف ونشر الصلاح والتسامح بين المتخاصمين، فكانت شديدة الورع و «لالا فاطمة نسومر» و «لالا زينب القاسمية» و «لالا عائشة البسكرة» وغيرهن كثيرات.

المطلب الثالث: مميزات التصوف النسوي

من خلال تاريخ التصوف الاسلامي الذي ذكر نماذج كثيرة من النساء المتصوفات اللواتي ساهمن في هذا الفكر نكتشف أن التصوف النسوي يتميز بمميزات اهمها:

- 1- الصدق والاخلاص في العبادة الذي ولد تصوفا نقيا خالصا من كدر الاتحاد والحلول والجذب، فنتج عن ذلك أنموذج للحياة الروحية الصادقة والخالصة في الاسلام وأكبر أنموذج في ذلك السيدة رابعة العدوية عاشقة الله.
- 2- عدم استخدام الحرام في سبيل الحلال كما فعل بعض الصوفية من إقامة حفلات وسهرات وأغاني وشطحات بعيدة عن الأصل وعن روح الشريعة الاسلامية، فلم يذكر التاريخ الاسلامي أن النساء المتصوفات فعلن ذلك.
- 3- أن التصوف النسوي كان ممارسة أي عملي وليس تأصيلي ولا فلسفي نظري.
- 4- أن المرأة الصوفية في أغلب الأحيان لم تكتب عن التصوف فهي تمارسه وتتعامل به ولا تكتب فلا نجد كتباً كثيرة في التصوف من إنتاج نسوي رغم ما كتب التاريخ عن ذكر المرأة الصوفية.

5- أنّ المرأة الصوفية ساهمت في إنشاء وتكوين وتربية رجال التصوف ويؤكد ذلك الشيخ محي الدين ابن عربي الذي كتب عن النساء الزاهدات اللواتي تأثر بهن تأثيرا عميقا في فكره الصوفي.

المطلب الرابع: تقييم اسهام المرأة المسلمة في الفكر الصوفي

من خلال تتبع تاريخ المرأة في الفكر الصوفي واسهاماتها يمكن استخراج الملاحظات الآتية:

1- أنّ النساء الزاهدات المتصوفات صنفن الى صنفين:

أ/ نساء غيبوا ولم يظهرن في الساحة الفكرية الصوفية رغم أن أسمائهن ذكرت في كتب التراجم، لكن التاريخ لم يكتب عنهن الكثير.

ب/ نساء برزن في الفكر الصوفي بروزا واضحا وذاع صيتهن وكتب التاريخ عنهن وعن اسهاماتهن.

2- أنّ المرأة الصوفية الزاهدة ظهرت ظهورا مشرفا ومميزا منذ العصر الأول وكانت لها اسهامات في مجال التربية

الروحية وتنشئة رجال التصوف. ولكن بدأ تدني وضع المرأة في مجال التصوف والفكر الاسلامي عامة للأسباب التالية:

أ/ أن المرأة الصوفية كانت متصوفة بالممارسة فلم تُخضّر في التصوف التأصيلي والتصوف النظري الفلسفي لذلك لم تكتب في هذا المجال.

ب/ أن المرأة الصوفية لم تكتب عن ذاتها وإنما كتب عنها بعض الرجال وأجحف في حقها البعض، ومن ثم لم تسهم المرأة المتصوفة في إثراء مكتبة التراث الاسلامي بالمؤلفات مقارنة بالرجل وهذا لا يعني أن المرأة الصوفية لم تكتب إطلاقاً فقد ذكر صاحب كتاب «الكواكب السائرة في أخبار المائة العاشرة» إمرة صوفية عالمة أدبية عظيمة هي «عائشة الباعونية» التي كانت من الصوفيات والشاعرات فقال عنها «إنها العاملة العاملة الصوفية الدمشقية أحد أفراد الدهر، ونوادير الزمان فضلاً، وعلماء، وأدباء، وشعراء، وديانة وصيانة.....ألفت عدة كتب منها «الفتح الحنفي» يشتمل على كلمات لدنية، ومعان سنية، وكتاب «الملاحم الشريفة، والأثار المنيفة» يشتمل على انشادات صوفية، ومعارف ذوقية، وكتاب «در الغائص، في بحر المعجزات والخصائص»، وهو قصيدة رائية، وكتاب «الاشارات الخفية في

المنازل العلية» وهي أرجوزة اختصرت فيها منازل السائرين
للهروي، وأرجوزة أخرى لخصت فيها «القول البديع، في
الصلاة على الحبيب الشفيع» للسخاوي...»⁽²⁰⁾

وربما كانت هناك مخطوطات كتبت من طرف المتصوفات،
لكن لم تصل إلينا ولم تخرج إلى النور ولم تحقق.

3- أن المرأة الصوفية لم تغيب داخل الدائرة الصوفية فقد
أكد الشيخ محي الدين ابن عربي على أن الرجال والنساء
يشتركان في جميع المراتب حتى في القطبية، فداخل دائرة
التصوف الحقيقي كان للمرأة موقع مشرف فالتصوف لا
يستعمل اللغة الذكورية في أي شأن يمس المرأة بل أجاز تسليك
المرأة وأن يتولاها شيخ، فهناك مريد ومريدة، وسالك وسالكة،
وعارف وعارفة.

إنما تم تغيب المرأة خارج الدائرة الصوفية في كتابات
التاريخ، فهناك صوفيات وعارفات بالله توارين في ضلال
التاريخ ولم يبرز منهن سوى القليل.

الخاتمة: □

رغم أن ما وصل إلينا من إنتاج المرأة المسلمة الزاهدة في الفكر الاسلامي عامة والفكر الصوفي خاصة كان انتاجا ضئيلا بالمقارنة مع الرجل إلا أنها تملك -المرأة الصوفية- نضوجا روحيا عميقا كان له دور واسهام في تطور الفكر الصوفي عبر التاريخ الاسلامي، وذلك لما تملكه من أنوار إيمانية وأدوار اجتماعية فقد أضافت الى الموروث الصوفي قدرا طيبا من أقوال القوم وتجلياتهم جاءت على لسان كثير من العابدات الصوفيات من كلامهن أنفسهن، أو من كلام سمعنه أو روينه عن رجال الصوفية ومشايخهم وعليه فالمرأة المسلمة المعاصرة مطالبة بأن تبذل ما في وسعها من جهد للتطور وتفتح طاقتها الابداعية في المجال الروحي والفكري لتقف جنبا الى جنب الرجل للنهوض بالأمة وبناء مجتمع متوازن، فهي تملك طاقات تؤهلها للإبداع والمضي قدما.

توصيات:

- 1- إعادة قراءة التراث الصوفي، وإعادة بناء تصور كامل حول مدى مساهمة المرأة في التصوف.
- 2- الاهتمام بتحقيق التراث الصوفي و تأصيله.
- 3- تصنيف مؤلفات تهتم بتراجم النساء الصوفيات فما يوجد في المكتبات الاسلامية من مؤلفات قليل مقارنة بالرجال.

الهوامش:

- (1)د/ حسن الترابي: تجديد الفكر، دار الحديث، الجزائر، ط: 1995، ص59.
- (2)د/ محمد البهي: الفكر الاسلامي في تطوره، مكتبة وهبة، القاهرة، ط: 1401هـ/ 1981، ص6.
- (3)د/ محمد بن موسى بابا عمي: أصول البرمجة الزمنية في الفكر الاسلامي دراسات مقارنة بالفكر الغربي، جمعية التراث، الجزائر، ط1 1425هـ/ 2004م، ص42.
- (4)د/ محسن عبد الحميد: تجديد الفكر الاسلامي، المعهد العالمي للفكر الاسلامي، فيرجينيا، الولايات المتحدة الامريكية، ط1، 1416هـ/ 1996، ص41.
- (5)أنظر: الرسالة القشيرية: الامام عبد الملك بن طلحة القشيري (ت465هـ) دار احياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط1: 1419هـ/ 1998، ص355.
- (6)أبو عبد العزيز إدريس محمود إدريس: مظاهر الانحرافات العقدية عند الصوفية وأثرها السيء على الامة الاسلامية، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، ط1: 1419/ 1998، ج1، ص25.
- (7)نفس المرجع: ص26.

- (8) أنظر: التصوف في ميزان الاسلام: د/ محمد بن عبد الكريم الجزائري، دار هومة، الجزائر، ط1: 1997، ص17.
- (9) ابن منظور: لسان العرب، دار الجليل، بيروت، دار لسان العرب، بيروت، لبنان، ط: 1408هـ/ 1988م، ج3، ص495.
- (10) أنظر: المصباح المنير/ أحمد بن محمد بن علي الفيومي المقرئ، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ط2: 1418هـ/ 1997، ص183.
- (11) مظاهر الانحرافات العقدية عند الصوفية، ج1، ص29.
- (12) الرسالة القشيرية، ص149.
- (13) د/ محمد علي أبو ريان: الحركة الصوفية في الاسلام، دار المعرفة الجامعية، مصر، ط: 1995، ص19.
- (14) د/ عمر عبد الله كامل: التصوف بين الافراط والتفريط، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1: 1422/ 2001، ص48.
- (15) ابن القيم الجوزية: مدارج السالكين، تحقيق احمد فخري الرفاعي، عصام فارس الخرستاني، دار الجليل، بيروت، لبنان، ج2: ص357.
- (16) د/ أبو الوفاء الغنيمي التفتازاني: مدخل الى التصوف الاسلامي، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط3: 1979، ص16.
- (17) د/ عرفان عبد الحميد عبد الفتاح: نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها، دار الجليل، بيروت، ط1: 1993م، ص21.
- (18) د/ أبو الوفاء الغنيمي التفتازاني: مدخل الى التصوف الاسلامي، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ط3، ص19.
- (19) محمود أبو الفيض المنوفي: جمهرة الاولياء واعلام اهل التصوف، مؤسسة الحلبي، القاهرة، ط1: 1387/ 1967
- وأنظر: ذكر النسوة المتعبدات الصوفيات: محمد بن الحسين النيسابوري السلمي ت412هـ تحقيق: محمود محمد الطناحي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط: 1413هـ/ 1993.
- (20) الشيخ نجم الدين محمد بن محمد الغزي ت1061هـ: الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1: 1418هـ/ 1997، ج1، ص288.

